

## المدخل إلى قوة الفكر - قوة الإبداع كنموذج :

طبقاً لما أشرنا إليه من قبل ، فإن قوة الفكر تعنى الانعكاسات المادية الحادثة (أو التي يمكن أن تحدث) من جراء (أو من خلال) الانتفاع العملي بـ [ أو التوظيف لـ ] الرؤى والأحكام ، الناتجة عن أعمال الحس المعرفي المتولد من عموم كافة المؤثرات والعوامل ، التي يمكن أن تؤثر فيه [ من تراكمات ومنتجات وتفاعلات وخصائص ، تأتي من (وتتعلق بـ) التراث والثقافة والانتماء والولاء والطموح والعلم والخبرة والقدرات الذهنية والعقل الجمعي ، ودرجة موضوعية الجهود والمعاناة المبذولة في مواجهة التحديات وفي إحراز التقدم ] .

وهكذا .. طبقاً لهذا المنظور ، فإن المدخل لقوة الفكر تتعدد وتنوع . هذا ما نود أن نؤكد .. تعدد وتنوع المدخل إلى قوة الفكر ، بل وتطور وتجدد هذه المدخل باستمرار . ولأنه يكاد لا يكون للفكر - الممكن - حدود ، فإن الفكر (بالنسبة للكليات المجتمعية) يمكن - باستمرار - أن يأتي بما لم يكن من الممكن تخيله كحلول (ومخارج) لمشكلات و/أو أزمات و/أو تحديات .

هنا نود جذب الانتباه إلى ترتيب أو بناءات محددة ، جاءت في العبارة الياقبة ، وبالتحديد «يمكن باستمرار أن يأتي» ... و... «ما لم يكن من الممكن تخيله» .. المعاني المقصودة من هذه الترتيب أو البناءات تشير إلى أنه (أى الفكر) لا ينضب (أو يمكنه أن لا ينضب) ، وأنه من الممكن أن يأتي بما لم يكن له مثال ، أو بما لم يكن متصوراً (أى أنه يمكنه أن يأتي بإبداع) .. هذه وجهة نظر تستند إلى معطيات من التاريخ ومن الزمن الحالي ، وهو ما يجعلنا نؤكد أن المدخل إلى «قوة الفكر» دائماً لها احتمال وجود ، وممكنة (فضلاً عن تعددها وتنوعها) . إنها (أى المدخل الممكنة لقوة الفكر في مواجهة أية مشكلة أو أزمة أو تحدى) تكاد أن يصعب إحصائها في أنماط تفصيلية ثابتة . وعليه ، فنحن نكتفى في مقام التناول الحالي بالإشارة - كمثال - إلى نموذج واحد فقط ، وهو الإبداع المجتمعي . لقد تناولنا الإبداع المجتمعي في مناسبات سابقة<sup>(١)</sup> من منظور إداري Managerial ، أما هنا فيهمنا جذب الانتباه إلى منظور آخر ، يختص بالكيفية (أو الأسباب) التي تجعل الإبداع المجتمعي من حيث طبيعته ومخرجاته بمدخل إلى قوة الفكر ، بل ومن الممكن - أحياناً - أن يكون الإبداع المجتمعي ذاته ممثلاً لقوة الفكر ، وتصبح مخرجاته مجسمة لفكر «قوة الفكر» ، أو لقوة «قوة الفكر» .

(١) يمكن الرجوع إلى تفاصيل أخرى بخصوص الإبداع المجتمعي ، تناولناها في الإصدارات الآتية:

أ - الوطنية في مواجهة العولمة - سلسلة أقرأ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٩٩ .

ب - بناء وتنمية القدرات البشرية المصرية: القضايا والمعوقات - سلسلة قضايا التخطيط والتنمية - معهد التخطيط القومي - القاهرة - ٢٠٠٣ .

ج - إدارة المعرفة والإبداع المجتمعي - طبعة الثالثة - دار العين للنشر - القاهرة - ٢٠٠٤ .

## ٢- لماذا نموذج قوة الإبداع :

إستنادا إلى الأطر السابق الإشارة إليها بخصوص العلاقة بين الإبداع وقوة الفكر، ندعى أن كافة المجتمعات (أو البلدان) العربية (وعلى رأسها مصر) تعيش حاجة (أساسية basic need) ماسة إلى الإبداع كغاية وكمنهج . ينبع ذلك - وباختصار شديد - من خلال الحاجة إلى القفز العالى إلى عمليات (أو مراحل) حياتية كبرى جديدة، بينما نحن لم نمارس بعمق العمليات (أو المراحل) الحياتية الكبرى الأسبق.

من أهم الأمثلة نشير فيما يلي إلى الحاجة إلى القفز إلى :

أ - إلى اقتصاد المعرفة [ رغم أننا لم نمارس الاقتصاد الصناعى الحقيقى ] .

ب- إلى إدارة المعرفة ذاتها [بمعنى أن ندير ونضبط أهدافها ومساراتها وتفاعلاتها وعائلاتها .. إلخ ؛ رغم أننا لم نمارس بحق حركيات المرحلة الأسبق ، والخاصة بالإدارة بالمعرفة ، بمعنى استخدام مفاهيم وأدوات ومنتجات المعرفة فى عمليات الإدارة ] .

ج- إلى التنظيم الشبكي [على الرغم من أننا لم نخبر التنظيم الهرمى بإيجابياته المهمة ، إلا - ربما - فى المؤسسات العسكرية] .

د - إلى التعاونية التنافسية co-opetition (فيما بيننا فى الأساس ، وأيضاً مع العالم الخارجى) ، رغم أننا لم نحقق كثيراً من النجاحات المهمة ، من خلال المرحلة السابقة ، والتي تميزت بالتنافسية الصرفة Competition .

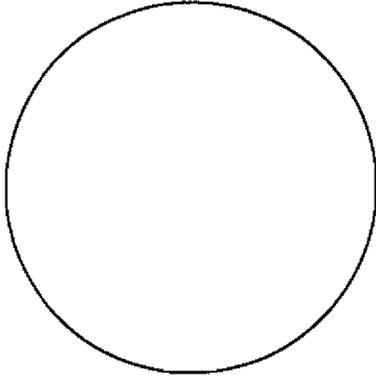
هـ- إلى عالم الثورات الماكرو أو السوبر والثورات الميكرو<sup>(١)</sup> [رغم أن مخرجاتنا فى الأنشطة الأساسية لهذه الثورات ، وهى أنشطة البحث العلمى والتغيير التكنولوجى مازالت تحبو (ملحوظة : مصطلح «تحبو» هنا يجىء لزوم الالتزام الشكلى - بقدر الإمكان - فى طريقة التعبير عن أنشطة، تتسم بالمحافظة إلى درجة تقترب من الجمود ، على الرغم من أن طبيعتها - فى الأصل - هى التغيير) ] .

وهكذا ، توجد ضرورات مركبة للقفز العالى .. ؛ الأمر الذى يستوجب الاتجاه إلى الإبداع .

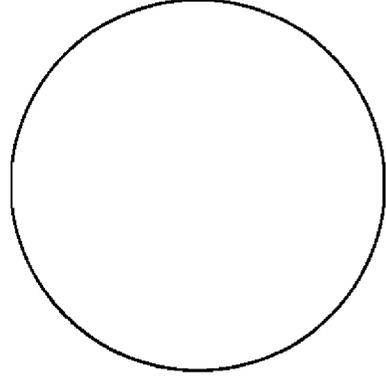
(١) يمكن الإشارة إلى الثورات السوبر (أو الماكرو) باعتبارها الثورات، التى تتعلق بتغيير كامل على مستوى العالم ؛ أى الثورات الجلوبال (أو العالمية) وتحدث تلك الثورات نتيجة عوامل تبرز من (وبواسطة) القوى المهيمنة - نسبياً - على العالم . هذه العوامل تأخذ شكل قوة معنوية أو قوة تنظيمية أو أداة فيزيائية مجسمة (مثل العلم والتكنولوجيا والتجارة) . وأما الثورات الميكرو (أو الدقيقة) ، فهى تلك المتصلة بطريقة الحياة . إن مجال حدوث الثورات الدقيقة (أو الميكرو) هو دوائر اجتماعية صغيرة - نسبياً - ومحددة . وهذه الدوائر يمكن أن تكون فى أجزاء من المجالات الحياتية ، مثل : التعليم ، والرياضة والصيدلة وإدارة المؤسسات وتصميم الآلات والبناء والبحث العلمى ... إلخ .. إلخ . لمزيد من التفاصيل ، يمكن الاطلاع على «مستقبل الثورات» فى كتاب للمؤلف ، بعنوان «القفز فوق العولمة» - سلسلة أقرأ - دار المعارف - القاهرة - ٢٠٠٣ .

### ٣- فضل الإبداع المجتمعي في إنجاز القفز العالى :

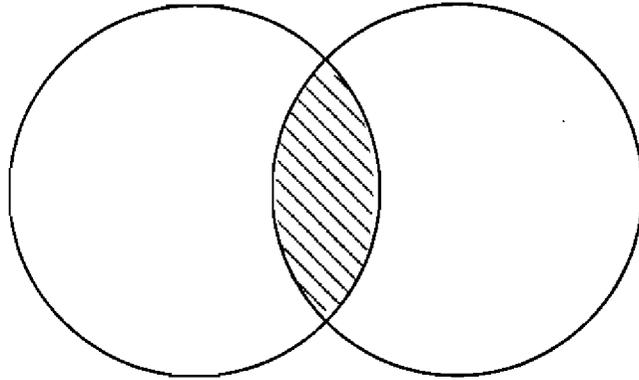
إذا كان من الممكن الإشارة إلى الإبداع ، بوجه عام ، على أنه «إحداث شيء على غير مثال مسبق» ، أو باعتباره «قدرة العقل على تكوين علاقات جديدة من أجل تغيير الواقع» ، أو أنه «نقد للواقع والاجتهاد في التمرد عليه وتجاوزه» ، وهى تعريفات ربما تشترك جميعها فى معنى نشوء تغيير (أو تحول) إيجابى بالنسبة لما هو سائد؛ فإن التغيير أو التحول (أو الإنجاز) فى الإبداع المجتمعي يكون أكثر بكثير من المحصلة الجبرية لمجموع الإبداعات أو الجهود الفردية للمشاركين فى الإنجاز .. هنا تجب الإشارة إلى أن المقصود بالمشاركين الأفراد هو الكيانات المشاركة ؛ فالكيان الفرد هنا قد يعنى - بالفعل - شخصاً ، وقد يعنى مؤسسة أو منظمة ، وقد يعنى جماعة أو مدينة أو دولة .... إلخ . المهم من منظور المخرجات أن الإبداع المجتمعي ليس من الممكن وجوده فى مجموع الحيز الإبداعي المحتمل للكيانات الأفراد المشاركة فى إحداثه . هذا ، ومن الممكن التعرف النظرى (أو المجرد) على الإبداع المجتمعي ، من خلال الشكل التالى :



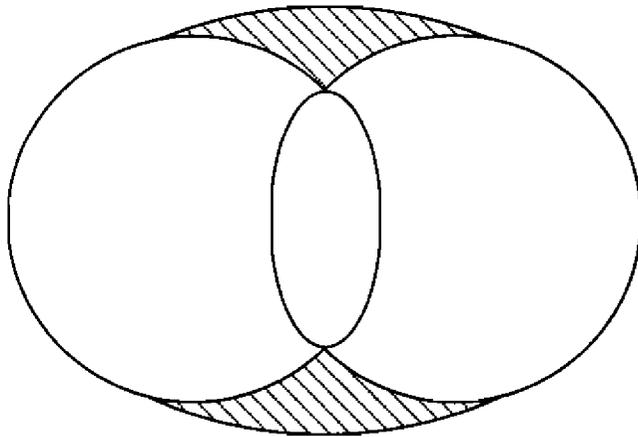
إمكانات وقدرات الكيان ٢»



إمكانات وقدرات الكيان ١»



الجزء المظلل يشير إلى الإمكانيات والقدرات المشتركة للكيانين ١» و٢»



الجزء المظلل يشير إلى الإمكانيات والقدرات والمخرجات المتولدة من الابداع المشترك للكيانين ١» و٢» ، حيث هي إمكانيات وقدرات ومخرجات ، لم تكن موجودة عند أى منهما ، كل على حدة .

بعد تفحص الشكل السابق وتخيّل المكوّن الابداعي فيه ، فإنه يمكن تخيل هذا الشكل ، إذا ما زاد عدد الكيانات المتشابهة (والتكاملة) فيه ليكون عدة كيانات وليس فقط كيانات . عندما يزيد عدد الكيانات المتشابهة في إطار تكاملي ، فإنه يتولد كيان جديد يصبح أكثر ارتقاءً من الكيانات المكونة له ، وتكون له خواص (من إمكانات وقدرات ومخرجات) جديدة تماماً ، مختلفة تماماً عن خواص الكيانات الأجزاء ، وأكثر إرتقاءً مقارنة بمجموع هذه الخواص .. إنه «الإبداع المجتمعي» ، والذي يمكن الأجزاء المتشابهة المتكاملة من الارتقاء (أو القفز العالى) إلى ما لا يمكن - مطلقاً - أن تصله أياً من هذه الكيانات فى حالاتها الفردية .. الإبداع المجتمعي Societal Creativity يصل بالكيانات داخله إلى حالة تواجد لكائن أعلى ، لم يكن موجوداً من قبل .. إنه نوع من التداخل (أو التفاعل) الاجتماعى الارتقائى Sociogenesis .

من أمثلة الإبداع المجتمعي فى الأنشطة الحياتية المختلفة (انتاجية وخدمية .. إلخ) ، يمكن الإشارة إلى إدارة التعامل بطريقة فى الوقت المناسب تماماً ، والتي يطلق عليها Just - in - time وتعرف عموماً بالاختصار JIT . إنها طريقة (أو نهج فى الفكر والتعامل) من ابتكار اليابانيين ، وتهدف إلى (وتحقق) ضبط العلاقة بين الأحداث والأشياء؛ بحيث يجرى التنفيذ فقط فى الوقت المحدد دون زيادة أو نقصان ، ودون أية فقد (فى مساحات المخازن ، أو طوابير الانتظار ، أو فى فترة زمنية بينية .. إلخ) .

أيضاً من الأمثلة البسيطة والجميلة والفاعلة فى تاريخنا الوطنى الحديث تجذب الانتباه إلى الإبداع المجتمعي للقوات المسلحة المصرية فى عبور خط بارليف (ومن قبلها ، فى عدد من الممارسات العسكرية الفذة أثناء حرب الاستنزاف ، على غرار ضرب «إيلات» ، وتخطيم الحفار الإسرائيلى فى أرغندا ، وغيرها كثير) ، وكذلك الإبداع المجتمعي ، الذى حققه فريق العمل المصرى بخصوص إثبات مصرية طابا واستعادتها . هذا ، ويجدر بنا أيضاً الإشارة إلى الإبداع المجتمعي القومى الماليزى، والذى من خلاله أحدث الشعب الماليزى إنجازاً إختراقياً تكنولوجياً عظيماً ، فى غضون سنوات قليلة (ارجع إلى ما سبق تقديمه فى إطلالة رقم ٣) .

#### ٤- شكل المعانات فى غيبة الابداع المجتمعي كمدخل لقوة الفكر :

فيما يلي إشارات - موجزة جداً - إلى نماذج من المعاناة (أو الإشكاليات القومية الناجمة عن غيبة الإبداع المجتمعي (والمسببة للحاجة إليه) .

\* ظهور أغلب التقارير الاستراتيجية المحلية (عربياً ومصرياً) فى صورة ملف يجمع داخله مجموعة دراسات (أو رؤى) ، أنجزت كل منها بواسطة فرد (أستاذ أو

خبير أو عالم ... إلخ) .. إنها دراسات (أو رؤى) فردية . بهذا الشكل ، فإن التقرير الإستراتيجى (والذى - بالطبع - لا يكون إستراتيجياً) لا يزيد عن كونه تجميعاً لجهود فردية .. يوجد إذاً غياب للجهود والتوجهات فوق الفردية ، عبر الفردية ، عبر الجماعات ، عبر الرؤى ... إلخ ، وبالتالي يوجد غياب لرؤى يمكن أن تكون بحق « إستراتيجية » .

\* تنتشر حالياً موجة الحديث عن الإصلاح على كافة مستويات الحياة اليومية فى البلدان العربية .. ذلك بينما لم تجر أية استفادة بالأفكار والأقلام والدراسات ، التى تناولت الإصلاح والتغيير فى البلدان العربية على مدى عدة عقود ، رغم كونها لا تحصى عدداً . ربما يكون من أسباب ذلك أن معظمها - إن لم يكن جميعها - لم يرتق بفاعلية حقيقية ، فوق مستوى العمل (أو الطموح) الفردى .

\* قد يمكن القول بأننا لم نعانى من أجل التقدم المجتمعى منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ (وقبلها حرب الاستنزاف) ، إلا فى قضية الدفاع عن مصرية طابا ، عندما تم اختيار سليم لخبراء مصريين من كافة التخصصات (سياسية وقانونية وجغرافية وعسكرية وعلوم ونفسية وتاريخية .. إلخ) على أسس قومية (وليست بوليتيكية) ، فكانت النتيجة على غير توقع الجانب الإسرائيلى ، عدالة لنا ومبهرة للأوساط المعنية فى العالم . السؤال الذى يجب ألا يتوه فى زحمة «الكلام» عن الإصلاح هو: هل يمكن أن يحدث تقدم دون معاناة إحدائه ؟ المحاولة الموضوعية للإجابة عن هذا السؤال ستضعنا - حتماً - وجهاً لوجه أمام إجراءات نعتبرها غريبة عنا وعن التقدم .. إجراءات مثل استجلاب إدارات إجنبية لإدارة مؤسساتنا الوطنية ، أو لإدارة النفايات (الزبالة) ، .... إلخ . من وجهة نظرى ، (بل كما هو معروف فى كل الأمم الناهضة) لا يمكن أن يحدث تقدم حقيقى دون سعى قومى منظم (أو معاناة قومية منظمة) إلى استيعاب التقدم العالمى وتوظيفه محلياً (بأنفسنا ، وبطريقتنا ، ومن منظورنا) .

\* من المعروف علمياً أن عائدات معاناة إحدائنا تطوير تكنولوجى ، فى أى مؤسسة ، يعود جزء صغير من عائدها (حوالى ٢٥٪) على المؤسسة نفسها ، و يعود الجزء الأكبر (حوالى ٧٥٪) على بقية مؤسسات المجتمع . التطوير التكنولوجى الحقيقى هو بطبيعته - إذاً - عمل مجتمعى . ترى كم التكلفة (فضلاً عن سؤال : كم الفاقد؟) نتيجة تلك السياسات العامة للتطوير التكنولوجى القومى لدى عقود ؟

\* فى عالم العولمة (أو حتى فى - مجرد - أى مجتمع صغير يريد أن يتقدم) هل يجوز الفصل بين ما هو اقتصادى وما هو اجتماعى ؟ ، بين ما هو صناعى وما

هو تكنولوجى ؟ ، بين ما هو تكنولوجى وما هو علمى ؟ ، بين الموارد الطبيعية ورأس المال الذهنى ؟ استفسارات تحتاج - بالقطع - إلى معالجات إبداعية مجتمعية ، تقوم على التشبيك والتكامل والارتقاء .

إنه إذا أمر جدير باهتمام وطنى - بل إنسانى - واسع .. ، أن يكون هناك دائماً بحث وبناء وتطوير بخصوص مداخل قوة الفكر ، بالقدر الذى يؤمن «فكر قوة الفكر» و«قوة قوة الفكر» .. ؛ وإلا ، فالبدل هو تسيد «فكر القوة» ، والذى هو بالفعل أخذ فى التخلخل بسرعة أو بأخرى ، داخل كافة مستويات التواجد الإنسانى فى أماكن كثيرة من العالم .

وهكذا ، .. «قوة الفكر» ، أو يكون البديل عدلاً أقل وحياء أكثر تفسخاً .

## خاتمة :

ربما يكون من المناسب هنا التوقف قليلاً عند «عبقرية الشهيد» .. إنه عبد المنعم رياض .. لقد قال لحدثه أثناء حرب الاستنزاف ، بينما كانا يمدان بصريهما إلى الجانب الآخر من القناة : «المعركة القادمة هى معركة المستقبل .. إنها ليست معركة فى المكان المحدود ، وإنما معركة فى الزمان غير المحدود» .

بالبصيرة الاستشراف المستقبلى ..!!

لقد كانت حرب أكتوبر العظيمة بعد ذلك معركة مكان محدود ، وأيضاً زمن محدود ، تم فيها استعادة الكرامة .

أما معركة الزمان غير المحدود .. فإنها تعتمد على موقفنا من الزمن ..

درجة إبداعنا (وإبداع غيرنا) فى التعامل معه والاستفادة منه .

فالزمن المجرد هو .. هو ... ، قد يكون نصف زمن عند قوم ، وزمنين عند قوم آخر ، ومائة زمن عند قوم ثالث ، ... وهكذا .

التعامل الفاعل فى الزمان غير المحدود يحتاج إلى الإبداع .. إلى الفكر .. إلى قوة الفكر .. إلى الديالكتيك الإيجابى بين «الفكر» و«القوة» .

## نبذة عن المؤلف

- \* أستاذ علم الأدوية .
- \* تخرج من كلية الصيدلة جامعة الإسكندرية (١٩٧٠) ، وأتم الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه في الأكاديمية الطبية بوارسو وفي المعهد البولندي لبحوث ورقابة الدواء (١٩٧٧) ، وأجرى دراسات لبعث الدكتوراه في معهد السموم بجامعة زيوريخ - سويسرا (١٩٨٣) .
- \* أنشأ في إطار الهيئة القومية للرقابة والبحوث الدوائية ثلاث وحدات علمية ، كانت الأولى من نوعها وطنياً وإقليمياً ، وهي أتر الأدوية على الأجنة (١٩٧٢) ، وقسم فارماكولوجيا النمو (١٩٨٤) ، ومركز الاناحة الحيوية للأدوية (١٩٩٠) .
- \* أول عربي ساهم في تحرير الموسوعة الدولية للآثار الجانية للأدوية (أعوام ٧٩ - ٨٠ - ١٩٨١) .
- \* أشرف علي (وناقش) عديد من الرسائل العلمية في علوم الدواء ، وكذلك في مجالات الإدارة والاقتصاد .
- \* شارك كخبير في التكنولوجيا واقتصاديات العولمة في إجتماعيات لخبراء مجموعة الدول الـ ١٥ ، كما شارك كاستشاري في إجتماعات إقليمية لمنظمة الصحة العالمية في مجالات صناعية وسياسات الدواء ، وأيضاً كمحاضر في شؤون التنمية والعولمة والملكية الفكرية في لقاءات قومية وإقليمية ودولية .
- \* عضو لجنة الثقافة العلمية (المجلس الأعلى للثقافة) ، وشعبة الدراسات الاستراتيجية والاستخدام السلمي للفضاء (مجلس بحوث الفضاء بأكاديمية البحث العلمي) ، والمجلس المصري للشئون الخارجية .
- \* من مؤلفاته :
- \* مستقبل صناعة الدواء في مصر والمنطقة العربية - المكتبة الأكاديمية - ١٩٩٦ .
- \* التوافقية منهج علمي تكنولوجي جديد - المكتبة الأكاديمية - ١٩٩٧ .
- \* إدارة المعرفة - رؤية مستقبلية - سلسلة إقرأ - دار المعارف - ١٩٩٨ (حصل علي جائزة أحسن كتاب في الدراسات المستقبلية) .
- \* التقدم الأسى : إدارة العبور من التخلف إلى التقدم - المكتبة الأكاديمية - ١٩٩٨ .

- \* الوطنية في مواجهة العولمة - سلسلة إقرأ - دار المعارف - ١٩٩٩ .
- \* السياسة القومية للتنمية التكنولوجية (مجموعة مؤلفين) ١٩٩٩ .
- \* ثورة الدواء : المستقبل والتحديات - سلسلة إقرأ - دار المعارف - ٢٠٠١ .
- \* مستقبل إتفاقية - حقوق الملكية الفكرية في ضوء الإتجاهات العالمية المعارضة (محرر مشارك) مركز دراسات التجارة الخارجية - جامعة حلوان - ٢٠٠١ .
- \* حقوق الملكية الفكرية - رؤية جنوبية مستقبلية - المكتبة الأكاديمية - ٢٠٠٢ .
- \* القفز فوق العولمة - سلسلة إقرأ - دار المعارف - ٢٠٠٣ .
- \* السياسات الدوائية في مصر : الأوضاع - الإشكاليات - المستقبلية ، كراسات منتدى السياسات العامة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة - ٢٠٠٣ .
- \* قصة الدواء : علم وتحديات - المكتبة الأكاديمية - ٢٠٠٤ .
- \* إدارة المعرفة والإبداع المجتمعي [الطبعة ٣ من إدارة المعرفة] - دار العين - ٢٠٠٤ .
- \* تطوير التعليم العالي في مصر (مع مجموعة من الخبراء - تحرير د. إبراهيم بدران) - مكتبة الشروق الدولية - ٢٠٠٥ .
- \* الترتيبات الهيكلية والقانونية لقطاع الدواء المصرى فى إطار اتفاقيات التجارة العالمية : رؤية استراتيجية - جمعية التنمية الصحية والبيئية - ٢٠٠٥ .
- \* ذلك بالإضافة إلى مؤلفات فى سلسلة كراسات عروض الصادرة عن المكتبة الأكاديمية وهى :
  - إدارة العولمة (١٩٩٩) .
  - إدارة الابتكار الاستراتيجى والتغيير (٢٠٠٠) .
  - الاقتصاد الرقمى (٢٠٠١) .
  - التفكير بطريقة إستراتيجية (٢٠٠٢) .